**المحاضرة الثامنة**

## دولة بني الأحمر بغرناطة (635 - 897هـ/ 1232- 1492م).

انفرط عقد الأندلس بعنف بعد هزيمة الموحدين فى معركة «العقاب» عام 609هـ/ 1212م أمام الجيوش الإسبانية والأوربية المتحالفة، وسارت الأمور من سيئ إلى أسوأ، والقواعد تخرج من قبضة الموحدين واحدة بعد الأخرى، ينتزع بعضها ابن هود الثائر وبعضها النصارى وأتاحت هذه الظروف فرصة الظهور والمغامرة للطامحين من القادة والزعماء.

فى تلك الأثناء ظهر محمد بن يوسف بن نصر أو ابن الأحمر الملقب بالغالب بالله في وقت اشتدت فيه المحن، وانعقدت عليه الآمال؛ لتميزه بالشجاعة ومجاهدة العدو، والتف حوله الناس وبايعوه فى «أرجونة» وما حولها على بعد ثلاثين كيلو مترًا من «جيان» في (رمضان 629هـ/ جويلية 1232م) وتوافد عليه جنود الأندلس؛ فأعلن نفسه أميرًا وانتقل إلى «جيان»، ودخلت فى طاعته بلاد الجنوب كلها، لكنه أحس أنه فى حاجة إلى معقل يعتصم به؛ لأن «جيان» مدينة مكشوفة، فوقع اختياره على غرناطة الواقعة عند سفح جبل الثلج، وكان يوجد في أعلى الجبل حصن منيع سبق تعميره أول عصر ملوك الطوائف، فتوجه إليه وسكنه واستقر به، وكان ذلك سنة 635هـ، وشيئًا فشيئًا أخذ يوسع نطاق سلطانه، حتى أصبحت دولته تضم بين جنباتها ثلاث ولايات كبيرة هى: غرناطة والمرية، ومالقة، ووصلت حدودها إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، واتخذ مدينة غرناطة عاصمة لدولته، وساعد على دعم دولته استيلاؤه على المرية ومالقة لما لهما من أهمية عظيمة فى المجالين التجاري والبحري.

وقد واجهت «ابن نصر» بعض المشكلات الداخلية والخارجية، منها:

علاقته بأصهاره «بنى أشقيولة» الذين عاونوه ثم انقلبوا عليه، ونقص المال الذي كان في أشد الحاجة إليه لتثبيت قواعد سلطانه، ومشكلته مع ملوك النصارى الذين أدركوا خطر دولته الناشئة وأرادوا القضاء عليها، فاضطر إلى أن يعقد معهم معاهدة صلح سنة 643هـ/ 1245م لمدة عشرين عامًا، وبمقتضاها حكم ابن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة «فرناندو الثالث» ودفع له جزية، ووافق على حضور البلاط القشتالى باعتباره واحدًا من أمراء الملك، وعلى مده بالجنود كلما طلب منه ذلك، وبالفعل أمده ابن الأحمر بقوات ساعدت على سقوط «إشبيلية» فى يد النصارى فى (3 شعبان

646هـ/ نوفمبر 1248م).

وفى (جمادى الثانية 671هـ/ ديسمبر 1272م) توفى محمد بن يوسف بن نصر الملقب بالشيخ، وكان قد أخذ البيعة لولده محمد، فأقر بذلك مبدأ الملكية الوراثية، وقد اعتلى محمد الثاني العرش ولقب بالفقيه؛ لاشتغاله بالعلم أيام أبيه، وقال عنه ابن الخطيب:

«وهو الذي رتب رسوم الملك للدولة ووضع ألقاب خدمتها، ونظم دواوينها وجبايتها، هذا إلى جانب اعتنائه بالجيش وخاصة فرق الفرسان .. وكان سياسيا بارزًا .. ، أديبًا عالمًا، يقرض الشعر ويجالس العلماء والأدباء والأطباء والمنجمين والحكماء، والكتاب والشعراء».

وقد واجهت الأمير الجديد ثلاث مشكلات هى، مشكلته مع الإسبان، وقد نجح فى تحقيق انتصارات عليهم منتهزًا فرصة موت مليكهم، ومع المرينيين الذين استنصر بهم ليعاونوه فى الجهاد ضد المسيحيين فإذا بهم يطمعون فى الاستيلاء على الأندلس، الشىء الذى دفعه إلى التحالف مع ملك أراجون تارة ومع ملك قشتالة تارة أخرى لدرء خطر المرينيين، وعلى الرغم من تحسن العلاقات بين غرناطة وفاس، فإن الفقيه لم يكن يطمئن إلى نياتهم، وقد دفعهم ذلك إلى التحالف مع النصارى مرات، وأخيرًا كانت هناك مشكلة مع أصهار أبيه «بنى أشقيلولة» التى اشتدت فى زمنه، وانتهت بصدور أمر يقضى بتهجيرهم إلى مدينة القصر الكبير بشمالى المغرب جنوب مدينة سبتة سنة 687هـ/ 1288م.

وعلى كل حال فقد توفى محمد الفقيه فى شعبان 701هـ/ أبريل 1302م بعد أن نجح فى دعم دولته داخليا وخارجيا.

تولى الأمر بعد محمد الفقيه ابنه أبو عبد الله محمد، وفى عهده تحالف ملكا قشتالة وأراجون على غزو مملكة غرناطة برا وبحرًا، ولكن «المرية» تمكنت من الصمود فى مواجهة أقصى هجوم عرفته فى تاريخها وتمكن جيشها بقيادة شيخ الغزاة «عثمان بن أبى العلاء» من هزيمة جيش أراجون، لكن العلاقة ساءت بين غرناطة وفاس، وقام صاحب مالقة بثورة عارمة ضد الحكومة المركزية، وكانت فتنة وقتال وحرب وهدنة استمرت أعوامًا ولم تنته إلا بموت الأمير.

ثم تولى أبو الوليد إسماعيل بن فرج الحكم 713- 725هـ/ 1313- 1325م) الذى اشتهر بإقامة الحدود وتطبيق الشرع، وفى عهده قام القشتاليون بهجوم ضخم على غرناطة، انتهى بمقتل أميرى الجيش النصراني فى مروج غرناطة، وانتهز الأمير فرصة منازعات بين أمراء قشتالة واستولى على بعض المدن القشتالية ومنها مدينة «أشكر»، وقد استخدم الغرناطيون المدفع لأول مرة عند منازلتهم

لها.

ثم تولى أبو عبدالله محمد الرابع بن إسماعيل (725- 733هـ/ 1325- 1333م) الذى اشتهر بالشجاعة كما كان مغرمًا بالصيد محبا للأدب والشعر، وفى عهده قامت بعض الفتن الداخلية التي انتهزها النصارى واستولوا على عدد من الحصون، كما أحرز أسطولهم نصرًا على الأسطول الإسلامي في ألمرية ومالقة.

وقد دفع هذا السلطان أن يعبر بنفسه إلى المغرب ليستنجد ببنى مرين الذين أجابوه إلى ما طلب، ونزلت قوات المرينيين على جبل الفتح وأمكنها الاستيلاء عليه عام (733هـ / 1333م)، ولكن السلطان قُتل فى طريق عودته إلى غرناطة وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول.

وشهدت مملكة غرناطة فى عهده عصرها الذهبى، فأنشئت المدرسة اليوسفية والنصرية، وجرى الاهتمام بتحصين البلاد، وإنشاء المصانع، وإقامة الحصون، وبناء السور العظيم حول ربض البيازين فى غرناطة، وأضيفت منشآت كثيرة إلى قصر الحمراء منها باب الشريعة وغيره، وكان السلطان حريصًا على تفقد أحوال شعبه بنفسه.

ومن الأحداث العظام فى عهده: الوباء الأسود الذى تفشى فى حوض البحر الأبيض المتوسط عامى (749 - 750هـ / 1348 - 1349م)، وشمل المشرق والمغرب، وراح ضحيته عدد عظيم من علماء الأندلس ورجال الأدب والسياسة فيها.

وعلى الرغم من قيام أبى الحجاج بعقد سلام مع ملك قشتالة عام (734هـ / 1334م) فإنه سرعان ما تحطم وبدأ الصراع بين غرناطة والمغرب من ناحية، وقشتالة تساندها أراجون والبرتغال من ناحية أخرى حول السيطرة على جبل طارق، وبعد معارك انتهى الأمر بين كل الأطراف بعقد معاهدة مدتها عشر سنوات، وتوفى يوسف الأول قتيلاً فى أول شوال 755هـ/ سبتمبر 1357م، وتولى ابنه محمد الخامس الغنى بالله، وحدث صراع وتحالف بين هذا الطرف أو ذاك وبين ملوك النصارى، وانتهت هذه المرحلة بعقد صلح دائم بين قشتالة وأراجون وغرناطة والمغرب عام 772هـ/ 1370م، ثم توفى السلطان محمد الخامس الذى كان ملك البرتغال وسلطان بنى مرين قد ساعداه على استرداد ملكه، وبعده تعاقب على عرش غرناطة عدد من السلاطين الضعاف وتعرضت المملكة لكثير من الفتن والدسائس والمؤامرات وجرت اتصالات وتحالفات مع ملوك النصارى، وبلغ الاضطراب حدا تعاقب فيه على مملكة غرناطة اثنا عشر سلطانًا خلال القرن (9هـ/ 15م)، تولى بعضهم أكثر من مرة، فشهدت غرناطة اعتلاء عشرين سلطانًا على عرشها.

حدث هذا في الوقت الذي شهدت إسبانيا المسيحية نهضة حربية وسياسية توجت بزواج «فرناندو الثالث» ملك أراجون من «إيزابيلا» ملكة قشتالة، واتحدت الدولتان فى مملكة واحدة عام 874هـ/ 1469م بعد طول نزاع وحروب، وكان ذلك بداية النهاية لمملكة غرناطة الإسلامية التى استمر بقاؤها معتمدًا -على حد كبير- على استغلال النزاع بين هاتين المملكتين، وبدأ الملكان الكاثوليكيان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامي فى شبه الجزيرة، وعرف ذلك سلطان غرناطة فامتنع عن دفع الجزية لقشتالة وبدأ النزاع بين الجانبين، وتمكن النصارى من الاستيلاء على حصن «الحمة» عام (887هـ/ 1482م).

وزاد من سوء الموقف اشتعال الحروب الأهلية بين أفراد البيت الحاكم؛ فقد هجر السلطان أبا الحسن على ولداه «أبو عبد الله محمد» و «يوسف» وأعلنا الثورة على والدهما بسبب خضوعه لسيطرة زوجته الرومية الأصل وإهماله أمهما، وقد قامت حروب بين الفريقين، أسفرت عن طرد السلطان أبى الحسن الذي لجأ إلى مدينة بسطة، كما قتل ابنه يوسف وتولى ابنه أبو عبد الله على مملكة غرناطة، وقد تعرض السلطان الجديد لهزيمة على يد النصارى وأسروه ثم أطلقوا سراحه بعد أن أملوا عليه شروطهم، وواصل السلطان الجديد الحرب ضد والده الذي سرعان ما توفى وخلفه أخوه أبو عبد الله محمد الملقب بالزغل.

انتهز النصارى فرصة هذه الفتن واستولوا على بعض المدن، وبعثوا إلى الزغل يعرضون تسليم ما معه من أراضٍ مقابل مال كثير فوافق ورحل إلى فاس، وهناك وضعه سلطان المغرب في السجن وصادر أمواله وسمل عينيه.

وقد لجأت مملكة غرناطة فى السنوات الأخيرة من عمرها إلى السلطات الحاكمة فى مصر تطلب نجدتها، ولكن مصر المملوكية آنئذٍ لم يكن فى مقدورها أن تفعل شيئًا بسبب ظروفها الداخلية، وكل ما استطاعته هو التهديد. بمعاملة المسيحيين فى المشرق معاملة سيئة إذا ما تعرض المسلمون فى الأندلس للإهانة، وقد أرسل الملكان المسيحيان سفارة إلى السلطان «قانصوه الغورى» عام 907هـ/ 1501م طمأنته على وضع المسلمين وأزالت التوتر بين الجانبين. وقد التقت قوات غرناطة والمرينيين من قبل وحاربوا قوات قشتالة وليون عند «أستجة» جنوبى قرطبة سنة 647 هـ/ 1249م، وتحمس المسلمون حماسًا عظيمًا ومزقوا قوات قشتالة شر ممزق، واضطر «ألفونسو العاشر» إلى طلب الصلح، وحدث لقاء مماثل قرب غرناطة عام 718هـ/ 1318م اتحد فيه المسلمون فحققوا نصرًا مؤزرًا، وهذا يعنى أن قوة المسلمين في الأندلس كانت لا تزال تستطيع الدفاع عن نفسها ودحر عدوها إذا وحدت

صفوفها وأدركت أهمية معاركها، ووعت جيدًا دورها فى مواجهة الأعداء وتثبيت أقدام المسلمين فى أرض الأندلس، لكن النفور بين المرينيين وبين بنى نصر كان أكثر أذىً وأشد وطأة من خلافهم مع النصارى.

وبقى عبد الله في الميدان وحده وقد رفض تسليم غرناطة وصمم على القتال، وفى عام 896هـ/1491م) قام الملك «فرناندو» بحصار غرناطة وأفسد زراعتها وأقام حولها القواعد، ثم توصل الطرفان إلى معاهدة التسليم، التي تضمنت ستين بندا جاء فيها: وقف القتال، إطلاق الأسرى من الجانبين علي أن يدفع الاسبان ضريبة علي أسراهم, تامين العرب على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم والاحتفاظ لهم بشريعتهم. ان تكون الحرية الدينية مكفولة والمساجد مصونة وأوقافها لا تمس، عدم التعرض لهم إذا رغبوا في العبور إلى المغرب، أن يترك السلطان قصر الحمراء إلى مدينة الاسبانية أخرى يختارها.

ولقد أرسلت هذه الشروط إلى ملك قشتالة فوافق عليها مقابل أن يتم تقديم خمس مائة (500) من كبار رجال الجيش كرهائن، فأجيب إلي طلبه.

ولما اجتمع الأمراء للتوقيع على معاهدة التسليم بكوا جميعا إلا واحدا وهو موسى بن غسان رفض وحاول أن يثير حماسهم من جديد, ولكن السلطان أبا عبد الله صاح قائلا: "الله اكبر لا اله الا الله محمد رسول الله ولا راد لقضاء الله، تالله لقد كتب لي أن اكون شقيا وأن يذهب الملك على يدي" ولقد ردد الحاضرون وراءه "الله اكبر ولا راد لقضاء الله". ولقد تم تسليم مدينة غرناطة في 2 ربيع الأول سنة 798هـ/ 2 يناير 1492م. ودخلت جيوش قشتالة بصحبة الملكين الكاثولكيين واستقبلهما السلطان أبو عبد الله في قاعة العرش (قاعة السفراء أو قاعة قمارش) وسلمهما مفاتيح غرناطة، ووقفت أمه السلطانة عائشة الحرة تؤنبه وهي تشير بأصبعها إلي مدينة غرناطة الرابضة تحت القصر وتقوله: "تذكر أن هذا الملك الذي تسلمه اليوم إلى أعدائك، فقد شيده أسلافك بدمائهم وعرق جبينهم، ولقد انتهي اليوم علي يديك" ولقد أقيمت مراسم احتفال تسليم المدينة ورفع العلم المسيحي والصليب بعد إنزال العلم الغرناطي فوق برج الحراسة الذي يتوسط مبني القصبة المدينة باعتباره أكبر واعلى أبراج الحمراء.

ولقد سار أبو عبد الله محمد وسط كوكبة من رجاله وأفراد أسرته في صمت وحزن، ولقد ألقى نظره أخيرة علي قصره الذي كتب له الخروج منه، وترقرقت الدموع في عينه، وما لبث أن انهمرت على خديه في صمت فصاحت به أمه عائشة الحره: "اجل، فلتبك مثل النساء على ملك لم تستطيع الدفاع عنه كالرجال". ولقد انتقل السلطان للسكن في مدينة فاس في المعرب وكان يعيش على صدقة المحسنين. وأطلق الاسبان علي هذا الموضع اسم "زفرة العربي الأخيرة".

هكذ اانطوي بسقوط غرناطة آخر صفحة من تاريخ الإسلام في الأندلس.